رأي القدس

تهديدات اسرائيل لسورية

■ دخلت عملية أسر الجندي الاسرائيلي جلعاد شاليط اسبوعها الثاني، دون ان تفلح الحشودات والتوغلات الاسرائيلية في الافراج عنه، لان رجال المقاومة الذين نفذوا عملية الاسر هذه بنجاح غير مسبوق، متمسكون بشروطهم في ضرورة مبادلته بالف من الاسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال.

الحكومة الاسرائيلية، المصغرة منها والمكبرة، تعيش حالة من التخبط والارتباك، وجاء اطلاق الجناح العسكري لحركة المقاومة الاسلامية «حماس» لصاروخ مطور وصل الى مدينة عسقلان في جنوب فلسطين ليضع ايهود اولمرت رئيس هذه الحكومة امام مأزق جديد.

ولعل ابرز مظاهر هذا التخبط والارتباك الاسرائيليين، التهديدات التي اطلقتها امس تسيبي ليفني وزيرة الخارجية الاسرائيلية الى سورية، وتحذيرها من دفع ثمن غال اذا لم يتم الافراج عن الجندي الأسير. فسورية لا تعلم شيئاً عن هذا الأسير، ونشك ان تكون قيادة «حماس» المتواجدة على ارضها قد استشيرت مسبقاً، او اعطت الضوء الاخضر لعملية الهجوم على القاعدة العسكرية الاسرائيلية في معبر كرم سالم التي اسفرت عن اسر الجندي المذكور وقتل اثنين من زملائه.

فالسيد خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة «حماس» ليس معروفاً عنه التدخل في العمليات العسكرية، او ادارة الجناح العسكري الذي ينفذها. وظل دوره مقتصراً على تمثيل الحركة سياسياً واعلامياً في الخارج. فالرجل كان ضد تمديد الهدنة التي التزمت بها الحركة، مثلما كان ضد المشاركة في الانتخابات التشريعية، ومع ذلك استمرت الهدنة، ودخلت الحركة الانتخابات.

الحكومة الاسرائيلية ادركت ان الوساطة المصرية فشلت في الافراج عن الجندي الأسير، لان القيادة المصرية التي تولت القيام بها لا تحظى بمصداقية او احترام كبيرين لدى الاجنحة العسكرية الفلسطينية. فهذه الاجنحة لا تثق بالوسطاء المصريين، وتعتبرهم ينطلقون في وساطاتهم، تنفيذاً لاوامر امريكية، وخدمة لمصلحة الدولة العبرية بالدرجة الاولى، لانهم يعملون من اجل التهدئة، وتجميد الاوضاع على حالها، ويركزون ضغوطهم على الجانب الفلسطيني، بينما هم لا يجرؤون على ممارسة اي ضغوط مهما كانت لينة على الطرف الاسرائيلي. ولان الوساطة المصرية وصلت الى طريق مسدود للاسباب الآنفة الذكر، بدأت الحكومة الاسرائيلية توجه تهديداتها الى سورية على امل ارهاب قيادتها، ودفعها الى ممارسة ضغوط على السيد مشعل، لكي يعجل بالافراج عن الجندي الأسير.

القيادة السورية لن ترهبها التهديدات الاسرائيلية، وحتى لو ارهبتها، فانه لن يكون بمقدورها الافراج عن الجندي الاسرائيلي الأسير، لان علاقاتها بالداخل الفلسطيني شبه معدومة. والجماعات التي تحتفظ بهذا الجندي ليس لها اي صلات بالخارج، وترفض التعامل مع اي نظام عربي، لان جميع هذه الانظمة خذلت الشعب الفلسطيني وتركته يواجه آلة الدمار الاسرائيلية وحده مجرداً من اي سلاح.

أسر الجندي الاسرائيلي قلب كل المعادلات في الداخل الفلسطيني، بل والمنطقة بأسرها، ويكفي انه جعل الغلبة لجماعات المقاومة، واضعف دور السلطة بشقيها، سواء المتعلق برئيسها او رئيس وزرائها، ووحد الشعب الفلسطيني كله خلف العمل المسلح، وانهى الخلافات ولو مؤقتاً، وجعل سيف الاستفتاء الذي كان يهدد به الرئيس عباس شيئا من الماضي. فعملية كرم سالم هذه جبّت كل ما قبلها.

كيف تنظر القيادة الإسرائيلية للفلسطينيين في الضفة والقطاع؟

د. بشير موسى نافع *

■ منذ استطاعت مجموعة من المقاومين الفلسطينيين أسر جندي إسرائيلي في موقع للدبابات المطلة على قطاع غزة والمنطقة والعالم يقفان على أطراف أصابعهما. من العواصم الأوروبية إلى واشنطن، ومن القاهرة إلى دمشق، ومن رام الله إلى رفح، تتداخل قوى العمل الدبلوماسي، الضغوط والضغوط المضادة، وينتظر الجميع ان يتحول الهجوم المسلسل على الحياة الفلسطينية إلى عاصفة شاملة من الموت والدمار أو ان يخضع المقاومون الفلسطينيون ويتم تسليم الجندي الأسير بلا مقابل. المشكلة في هذا التوتر المصحوب بدوي المدافع وقصف الطائرات الإسرائيلية انه لا يرى في المشهد سوى الجندي الإسرائيلي. والمقصود هنا ليس الكيل بمكيالين في اعتبار ضحايا الصراع من الطرفين، وتجاهل حجم الخسائر الفلسطينية الهائلة التي سبقت أزمة أسر الجندي وكل أزمة في العلاقة بين القوة المحتلة والشعب تحت الاحتلال. فالكيل بمكيالين لم يعد يحتاج لا التذكير ولا الأدلة. المقصود هو في الحقيقة أمر آخر، يتعلق بالمنظار الذي يرى الإسرائيليون من خلاله شركاءهم الفلسطينيين، الذين تكرر القيادات الإسرائيلية رغبتها في التوصل إلى سلام دائم معهم.

مصر، الدولة العربية التي تتمتع بعلاقات حسنة بكل الأطراف، تبذل أقصى جهد ممكن لإطلاق سراح الجندي، حتى لو كان ذلك بدون استجابة إسرائيلية للمطالب الفلسطينية المتواضعة. كانت القاهرة، التي لم تشعر بسعادة خاصة لعقد الانتخابات الفلسطينية وللنتائج التي نجمت عنها، تعلق آمالاً على الحوار الفلسطيني الداخلي وترغب في ان تجري حكومة حماس تغييراً ملموساً على مواقفها السياسية. ولكن لا القاهرة، ولا العواصم العربية الأخرى المعنية بعملية السلام كانت قادرة على لجم مسلسل العدوان الإسرائيلي على القوى الفلسطينية المختلفة وعلى الشعب الفلسطيني بمدنييه ومؤسساته. ثم جاءت عملية أسر الجندي لتضع مصر والدول العربية الأخرى وجهاً لوجه أمام أزمة متفاقمة. الهدف الرئيسي للتحرك المصري هو محاصرة التصعيد وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه؛ إذ ان التصعيد يهدد بخلق حالة من عدم الاستقرار في قطاع غزة اللصيق بمصر جغرافياً وبشرياً؛ وسيصبح رافداً جديداً للحراك السياسي الذي يزداد حدة في مصر نفسها؛ كما سيترك آثاره على مجمل عملية السلام وارتباطات مصر الاقتصادية المتزايدة بها. زاوية الرؤية المصرية لمسألة الجندي الإسرائيلي هي زاوية مصرية بحتة، محددة بالكيفية التي يقدر بها الحكم مصالح مصر القطرية في الوقت الحالي.

الولايات المتحدة، الحليف الأكبر للدولة العبرية، تتعامل مع أزمة الجندي الأسير على عدة مسارات. فالأزمة من ناحية هي صنيعة عمل إرهابي فلسطيني ضد دولة لها الحق الكامل في الدفاع عن نفسها. الحل الوحيد لهذه الأزمة هو إطلاق الفلسطينيين الجندي بدون قيد أو شرط، وان تقوم السلطة الفلسطينية بمعاقبة المجموعات التي نفذت الهجوم على وحدة الدبابات الإسرائيلية. الولايات المتحدة والعالم أجمع، من وجهة نظر واشنطن، في حرب ضد الإرهاب، وأي انتصار للإرهاب الفلسطيني هو انتصار للإرهاب في العالم. ولكن الأزمة، من ناحية أخرى، توفر منفذاً جديداً للضغط على دمشق والعمل على تقويض الاستقرار في سورية. ومن هنا جاءت التصريحات الأمريكية والإسرائيلية التي تحمل دمشق مسؤولية أسر الجندي ومساعدة ورعاية الإرهاب. ولأن إيران أخذت أيضاً موقفاً داعماً للحكومة الفلسطينية التي تقودها حماس، فقد واجهت اتهامات مشابهة. وربما يجد الأوروبيون بعض الحرج في تبني لغة التصريحات الأمريكية، ولكن موقف لندن وباريس وبرلين لا يختلف كثيراً عن موقف واشنطن. بل ان الرئيس الفرنسي، الذي يخوض منذ فترة حرباً صليبية خاصة ضد سورية، شارك هو الآخر في التنديد بدمشق، على أساس ان الجندي الإسرائيلي الأسير يحمل جنسية فرنسية ـ إسرائيلية مزدوجة.

الفرضيات التي أقيمت عليها هذه المواقف جميعاً هي بالتأكيد فرضيات خاطئة. فعملية خطف الجندي لم تؤد بالضرورة إلى تصعيد التوتر في قطاع غزة والضفة الغربية؛ لأن الاوضاع في المنطقتين كانت وصلت إلى أسوأ ما يمكن ان تصل إليه قبل وقوع الجندي الإسرائيلي في الأسر. الحصار الذي فرضته الحكومة الإسرائيلية، وشاركت فيه الولايات المتحدة والدول الأوروبية، بل وبعض الدول العربية، على الفلسطينيين خلق وضعاً غير إنساني بكل المقاييس. ومنذ تبنت القوى الفلسطينية سياسة التهدئة في القاهرة قبل خمسة عشر شهراً والقوات الإسرائيلية تواصل اغتيال النشطين الفلسطينيين، ولا تتورع عن التعرض للمراكز المدنية مودية بحياة أطفال ونساء وأسر بأكملها. وإن وضعنا في الاعتبار ان ممارسة الحق الديمقراطي وانتخاب حماس هو أحد أهم أسباب هذه الحرب غير المعلنة على الوجود الفلسطيني، فلنا ان نتصور حجم المرارة التي يشعر بها الفلسطينيون وقطاعات واسعة من الشارع العربي.

استندت السياسة الإسرائيلية إلى ان الفلسطينيين لا يفهمون إلا لغة القوة (وقال بعضهم انه حتى القوة غير كافية)، وان نجاح إسرائيل في تحقيق رؤيتها للتسوية غير ممكن بدون إيقاع هزيمة بالغة بالفلسطينيين، حتى إن تطلب الأمر تدمير أسس الحياة والاجتماع والوجود الفلسطيني. الرؤية التي طرحها المؤرخ الأمريكي اليهودي برنارد لويس بعد هجمات أيلول (سبتمبر) 2001 حول أزمة العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، والقائمة على فرضية ان العالم الإسلامي لم يعترف مطلقاً بحقائق القوة في العالم، وأن علاقة صحية بين الغرب والإسلام غير ممكنة بدون إيقاع هزيمة ساحقة بالعرب والمسلمين، هي ذات الرؤية المؤسسة للسياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين جميعاً، بغض النظر عن توجهاتهم وخلفياتهم. الفلسطيني الجيد في نظر القيادة الإسرائيلية هو الفلسطيني الذي أقر بالهزيمة ووطن النفس على قبول التسوية التي سيتكرم الجانب الإسرائيلي بعرضها. سياسة القوة والعنف هذه هي التي أدت إلى العملية التي انتهت بأسر الجندي الإسرائيلي، لأن افتراض إيقاع الهزيمة بالفلسطينيين هو افتراض هش في جوهره، لاسيما ان الصراع على فلسطين مستمر منذ أكثر من قرن بدون ان تخفت وتيرته أو يصل إلى نهاية ما.

بيد ان السؤال الذي ما يزال ينتظر الإجابة هو لماذا تدفع الحكومة الإسرائيلية قضية الجندي الأسير إلى الانفجار. الإدعاء بأن الدولة العبرية لا تفاوض إرهابيين هو بالطبع مجرد إدعاء؛ فمن وجهة النظر الإسرائيلية لا يمكن ان تكون الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة، أو حزب الله، أقل إرهابية من حركة حماس ولجان المقاومة الشعبية. ومع ذلك فقد فاوض الإسرائيليون كليهما، وعقدوا مع كليهما صفقات لتبادل الأسرى. والجندي الإسرائيلي لم يختطف من مقهى، بل هو بالتأكيد أسير حرب، وقع في يد الفلسطينيين إثر معركة حامية الوطيس شهدت خسائر في أرواح الجانبين. كما ان المطالب الفلسطينية هي مطالب متواضعة، تتعلق بأكثر جوانب مسألة الأسرى إنسانية. إذ فوق ان هناك ما يزيد عن إثني عشر الف من الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، بينهم عدد كبير من المعتقلين الذين لن يقدم أحد منهم للمحاكمة، فإن المئات بين هؤلاء الأسرى من الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ستة عشر عاماً، ومئات أخرى من النساء. وحتى بدون قضية الجندي الأسير كان على العالم ان يعمل منذ زمن طويل على الإفراج عن الأطفال والنساء، وأن يضع حداً لسياسة الاعتقالات الإسرائيلية فوق القانونية. ولكن الموقف الإسرائيلي من مسألة الجندي الأسير لا تتعلق لا بقوانين الأسرى ولا بالجانب الإنساني المتفاقم لجموع الأسرى الفلسطينيين.

الحقيقة ان هناك سياسة إسرائيلية لا يمكن إخفاؤها في التعامل مع الفلسطينيين في الضفة والقطاع على أنهم رعايا أو عبيد، وفي رفض النظر إليهم على قدم المساواة، شركاء أو خصوماً وسياسياً أو إنسانياً. الادعاء الإسرائيلي بأن هدف عملية السلام هو التوصل إلى قيام دولة فلسطينية لا يعني ان الإسرائيليين يقصدون دولة مساوية للدولة العبرية، لا على مستوى السيادة ولا على مستوى الاستقلال. وربما لم يعد من المجدي سياسياً العودة إلى اتفاق أوسلو والكوارث التي جرها على القضية الفلسطينية؛ ولكن اتفاق اوسلو مثال واضح على الطريقة التي ينظر فيها الإسرائيليون للفلسطينيين في الضفة والقطاع. فالفلسطينيون ليسوا شعباً بالمفهوم المتداول للشعب؛ والمستقبل الذي يعدهم به سادتهم من الإسرائيليين هو التمتع بحكم ذاتي تحت إشراف إسرائيلي شامل على ان يقوموا بلعب الدور المنتظر منهم لفتح الطريق إلى المنطقة العربية. ثمة جدل كبير ولده توقيع اتفاق أوسلو حول ما إن كان الإسرائيليون قد أقروا أخيراً بأن دولتهم أقيمت على أنقاض شعب آخر، وان هذا الآخر لا يزال متواجداً يقاوم محاولة إخراجه من التاريخ والبلاد. ولكن الحقيقة ان أوسلو كان نصاً للالتفاف على حقيقة الوجود الوطني الفلسطيني وعلى حق الهوية الفلسطينية في التجلي على أرض فلسطين.

ولن يفيد تصنيف الفلسطينيين ضمن خانة الإرهاب كثيراً، لا في تخفيف حدة التوتر ولا في المساعدة على التوصل إلى السلام. نجاح حماس الكاسح في الانتخابات التشريعية وتشكيلها الحكومة كان لاحقاً للهجمة الإسرائيلية ـ الأمريكية الدعائية ضد القوى الفلسطينية المسلحة. وربما لم يكن الفلسطينيون في عمومهم، عندما أعطوا أصواتهم لحماس، يتوقعون بالفعل انتصارها الكبير في الانتخابات. ولكن المؤكد اليوم، وبعد مرور ستة شهور على الانتخابات التشريعية، وبعد شهور من الحصار القاسي المفروض على الحكومة والفلسطينيين في الضفة والقطاع، ليس ثمة من شك في ان شعبية حماس قد ازدادت عن شعبيتها في كانون ثاني (يناير) الماضي. من السهولة بمكان اتهام الفلسطينيين بالجنون الجماعي (وهي اتهامات توجهها كتابات عربية أيضاً)، وأنهم يخوضون معركة خاسرة لن تؤدي إلا إلى المزيد من فقدان الأرض والمعاش، ولكن هذا هو الواقع الذي ينبغي على العالم التعامل معه وأخذه في الحسبان. بدون رؤية حقائق الصراع على ما هي عليه، وبدون قراءة الواقع بكل تعقيداته، ستسير الأوضاع في هذه المنطقة من العالم من سيىء إلى أسوأ، وستصحو القوى الدولية يوماً لتجد الصراع على فلسطين وقد امتد ليطال مناطق اخرى من العالم. ولعل هذا ما بات يحرك الموقف الروسي، الذي أخذ منذ استقبال قادة حماس في موسكو يبدي حساسية متجددة تجاه الوضع في الشرق الأوسط، لاسيما بعده الفلسطيني.

لا يحمل قيام الحكومة الإسرائيلية بالتفاوض على مصير الجندي دلالات خاصة بالحرب على الإرهاب، ولا يمثل حتى تنازلاً لحكومة حماس. المعنى المستبطن للتفاوض يتعلق من ناحية بالاعتراف بفشل سياسة الإخضاع بالقوة، ومن ناحية أخرى بالتعامل مع الفلسطينيين على قدم المساواة. وإن كانت الدول العربية المعنية، والقوى الأوروبية الرئيسية والولايات المتحدة قلقة فعلاً على مصير المنطقة وعلى عملية السلام، فعليها ان تطلب من الإسرائيليين إعادة النظر في أسس رؤيتهم للفلسطينيين وبدء تفاوض جاد حول الجندي الأسير.

* كاتب وباحث عربي في التاريخ الحديث

كما ينتحر الأفراد تفعل الأمم

د. علي محمد فخرو

■ ما الذي يوصل الإنسان، وبالتالي الشعوب والأمم، إلى الإنسحاب الكامل من الحياة وإلى إما الإستسلام للموت البطيء المحقّق أو إرتكاب حماقة الانتحار؟ إن تعامل الإنسان العربي كفرد، وتعامل الدول العربية كجماعات ومؤسسات مع التطورات المستجدة في الساحة الفلسطينية تستوجب طرح مثل هذا السؤال الصّعب. ذلك أن ردود الأفعال العربية ليست سياسية، بحيث يمكن إلى حدٍّ ما فهمها، وإنّما هي ذهنيّة ناتجة عن عقل مضطرب ومشاعر مشوّشة وضمير شبه ميّت.

من المعروف على مستوى الفرد أن الذي يؤدّي إلى يأسه من الحياة ثمّ إقدامه على إنهائها بالانتحار هو وضع نفسي بالغ التأزّم والألم الذي لايطاق، تولّده مشاعر مثل الخجل أو الكآبة أو اليأس. فهل وصل الحال بالأمة العربية إلى قلّة الحيلة وإنسداد كل الأبواب أمامها لتسمح لمشاعر الخجل والكآبة واليأس أن تسيطر عليها فتشلّ عقلها وإرادتها وتدفعها دفعاً مرعباً نحو الإنسحاب الحالي من الحياة الفاعلة والإقتراب من حافة الإنتحار؟

إن بعض الذي نشاهده يكاد يجيب على السؤال الأخير بالإيجاب. فكثير من المؤسسات الرسمية العربية أو الإسلامية إكتفت باستنكار وشجب الهجوم الإجرامي الصهيوني على غزّة ولم تطالب الحكومات العربية والإسلامية بفعل أيّ شيء أو إتخاذ أي اجراء تجاه الصهاينة أو تجاه الدول التي تقف معهم مثل الولايات المتحدة الأمريكية. والمؤسسات غير الحكومية فعلت نفس الشيء، إذ شجبت واستنكرت ودعت الحكومات لعمل شيء ما لمساعدة الفلسطينيين دون أن تذكر ما الذي ستفعله هي إن لم تستجب الحكومات. بل الأشنع كانت تلك الوساطات الغريبة للإفراج عن الجندي المختطف والإيماءات في وسائل الإعلام العربية بلوم الفلسطينيين على إختطاف جندي يحتلّ أرضهم وعدم ربط ما يحدث الآن بالقضية الأساسية: إحتلال وطن وتشريد شعب مع وقوف يجلّله عار وخزي للمجتمع الدولي والدول الغربية والأمم المتحدة من ذلك الاحتلال والتشريد، بل والإبادة.

لكن هل حقاً أن أمة مكوّنة من أكثر من ثلاثمئة مليون من البشر، يمتدّ وطنها عبر قلب الكرة الأرضية فيمثل أهم المناطق الإستراتيجية في العالم، تختزن في أرضها ثلثي المخزون النفطي وثلث المخزون الغازي وهما اللذان يحرّكان عجلة الإقتصاد العالمي برمّته، تستورد سنوياً بمئات مليارات الدولارات من البضائع من أمريكا ودول أوروبا، تمثّل أكبر مستورد على مستوى العالم كله للسلاح من تلك الدول وبالتالي تشغّل ملايين الأيدي العاملة في تلك الدول، تختزن في داخلها الطاقات الهائلة لدين الإسلام، ترفع لافتة أعدل قضية عرفتها البشرية.. هل حقاً أن أمة كهذه لا تستطيع أن تفعل أيّ شيء وعلى الإطلاق لمساعدة أهل غزّة وهم يواجهون الموت والدّمار والجوع والإبتزاز وصمت ضمير أمريكا والأمم المتحدة؟ إذا كان جواب هذا السؤال، بموضوعية تامة وبعدم الشطط، هو بالإيجاب فإننا فعلاً نسمح لأنفسنا كأمة بالاقتراب المفزع من وضع ذلك الفرد الذي تدفعه مشاعر الخجل والكآبة واليأس إلى إرتكاب حماقة الإنتحار. ذلك أن كل مانفعله تجاه إماتة غزّة، ومن قبلها إحتلال العراق وتمزيق السودان والتخلّي عن الصومال والسّماح للتطبيع المتسارع مع النازيين في فلسطين، يوحي بأننا بدأنا مسيرة الخروج من نهر الحياة.

إن المفجوعين بانتحار عزيز عليهم يشعرون عادة بالذنب لأنهم فشلوا في منع الإنتحار، وأحياناً يشعرون بالغضب لأنهم يرون أن المنتحر أراد أن يعاقبهم على عدم اهتمامهم به. فهل يريد المفكرون وقادة مؤسسات المجتمع وطلائع النضال في كل أرجاء الوطن العربي أن يصلوا في النهاية وبعد فوات الأوان إلى العيش مع مشاعر الغضب والشعور بالذنب أم أنهم سيحملون مسؤولياتهم التاريخية؟ سؤال تطرحه غزّة علينا.

رداً على محمد حسنين هيكل:

موريتانيا «لعنة الجغرافيا» أم لعنة الجهل والتجاهل؟

محمد عبد الرحمن محمد فال*

■ قبل سنوات استقبلت ضمن لفيف من الإعلاميين العرب في احد المطارات العربية من طرف مسؤول حكومي سام صافحني قائلا: مرحبا بك في (...) كيف حال مقديشو؟ فهمت الأمر على انه زلة علاقات عامة وقلت له محاولا تنبيهه، أنا قادم من موريتانيا، رد علي المسؤول الإعلامي الكبير نعم أعرف لكن كيف درجة الحرارة في عاصمتكم مقديشو؟ قلت له مرتفعة جدا جدا!!!.

وقبل شهور جلست مع رئيس تحرير واحدة من كبريات الصحف العربية لم يسمع قبلي بكلمة «شنقيط»، وقال لي مازحا توقعت أنها وجبة غذائية عندكم !! قلت له قد تكون وجبة روحية وفكرية ولكن..

وقبل أسابيع التقيت مع حارس هندي في إحدى العمارات سألني فجأة بلغته المتكسرة هل موريتانيا عربية إسلامية؟ قلت له نعم، ولما لاحظ استغرابي لسؤاله قال لي أردت فقط أن أتأكد أنها هي نفسها بلاد «شنقيط» التي درسنا عنها في الجامعة الإسلامية بالهند.

هذه المواقف سيعيشها يوميا كل من يودع مطار نواكشوط الدولي باتجاه الشرق حتى يعود إليه، ولكن ما هو السبب؟ هل فعلا يعود «للعنة الجغرافيا» أم لعوامل أخرى؟

استذكرت هذه المواقف ـ وغيرها كثير ـ عندما جدد الهرم الإعلامي الكبير أستاذ الأجيال محمد حسنين هيكل اساءته لموريتانيا، ويبدو انه حريص على أن يتحفنا بمثل هذه الإساءات من حين لآخر، فقد كتب قبل سنتين أن موريتانيا دخلت الجامعة العربية عن طريق الخطأ وما أدراك ما الجامعة العربية؟ والأكيد أن موريتانيا تعتز وتتشرف جدا بوجودها في الجامعة العربية لأنها امتدادها الإقليمي وبعدها الحضاري، لكن أعتقد جازما أن اهتمامها بالقضايا العربية يجعلها مستعدة لخروج الجامعة على الأقل مؤقتا إن كانت هي العائق أمام تحول الجامعة إلى مدينة «أفلاطون الفاضلة».

يوم أتحفنا استاذنا الجليل هيكل بهذه الإسئلة لم تطاوعني نفسي في الكتابة له، وان كان الألم اعتصرني على طريقة الفنانة الكبيرة فايزة احمد (أنا لست ابكي منك بل ابكي عليك...)

أما اليوم فأستاذنا الجليل هيكل يمعن في الاساءة والسخرية ردا على سؤال الزميل «محمد اكريشان» في «قناة الجزيرة» عن رأيه في «النموذج الموريتاني» معتبرا «لعنة الجغرافيا» ـ التي تعاني منها موريتانيا في رأيه ـ عائقا أمام تقديم موريتانيا لأي نموذج صالح، وكأنه يتحدث عن «الهنود الحمر» أو شعوب «الاسكيمو».

وفضلا عن الأسلوب الساخر الذي تحدث به تبلغ الاساءة ذروتها عندما يستعمل في حق موريتانيا كلمة «اللعنة» وهو يدرك جيدا الدلالة اللغوية والدينية والسياسية لهذه الكلمة.

وعندما يصل الأمر لهذا المستوى لا أجد بدا من التوجه لمقام أستاذنا الجليل بهذه السطور خاصة بعد أن استشعرت أن كبار المثقفين في موريتانيا ترفعوا عن الرد عليه، وأنا في كل الحالات لا أرد عليه لسببين اثنين أولاهما أنني لا املك الأهلية الكافية للرد على هرم إعلامي وفكري بارز بحجمه، وثانيهما أن ما تفضل به مردود عليه بحكم الواقع والوقائع، لذلك أدعوه فقط إلى إلقاء نظرة جديدة متأنية على الخريطة ليعرف أين تقع موريتانيا ما دام أسس «لعنته» لها على أساس الجغرافيا ليتأكد أن الجغرافيا بريئة جدا من دعواه. فكم من الخبراء والاقتصاديين تحدث عن موقع موريتانيا الاستراتيجي الذي تحسد عليه برا وبحرا، ففضلا عن 700كلم على شواطئ المحيط الأطلسي يرقد فيها اكبر مخزون للأسماك وأجوده في العالم إلى جانب اكبر وأروع محمية طبيعية للطيور في العالم ـ فضلا عن ذلك ـ تختزن الصحراء موارد هائلة من الحديد والذهب والنفط مع حديث عن اكتشافات هامة للغاز الطبيعي، لكل ذلك تضاف المساحات الزراعية الشاسعة والمواقع السياحية الساحرة.

لكن ثروة موريتانيا الحقيقة لا تتمثل في هذه الموارد الهائلة، وإنما في جوهر الإنسان الموريتاني نفسه تاريخا وحضارة وواقعا وآفاقا، فهذا الإنسان هو الذي حول هذا الموقع الجغرافي إلى ملتقى للحضارات والثقافات، فعلى أديم هذا الموقع يتعانق العرب والأفارقة عناقا وجدانيا روحيا رائعا أثمر تنوعا فكريا وثقافيا روافده المتدفقة بالعطاء تشكل مشهدا ثقافيا منقطع النظير.

وهذا الموقع (اللاعن) حسب أستاذنا الكبير هيكل له تاريخه الإشعاعي الهام المتجسد في نشر الإسلام والثقافة العربية في كل أدغال إفريقيا الوثنية، وامتد ذلك الإشعاع إلى أن وصل الأزهر الشريف وبلاد الهند ودول شرق آسيا، كما كان «للشناقطة» حضورهم المتميز في المحافل العلمية بالمشرق العربي خاصة في الحرمين الشريفين.

ويرى الباحثون والمؤرخون العرب أن العالم العربي لم يشهد فترة انحطاط لأن الفترة التي ذبل فيه الإشعاع الثقافي بالمشرق كانت الفتيات في مدينتي «تشيت» و«ولاتة» ـ التاريخيتين بموريتانيا ـ تحفظن «مقامات الحرير» وتنعشن بها الأعراس غناء وتلحينا على الطبول، ويكفي هذا المؤشر لقياس مستوى الإشعاع الثقافي لهذه «الجغرافيا» في ذلك التاريخ. إذا بأي منطق يتحدث استاذنا الجليل عن «لعنة الجغرافيا الموريتانية»؟ بمنطق الإشعاع الثقافي المنظور لموريتانيا أم بمنطق عصر المدينة الكونية الواحدة واختصار «الريموت كنترول» للمسافات في ظل الهيجان الرقمي الأشبه ما يكون «بالتسونامي».

لكن اخطر ما استشفه من اساءة أستاذنا الجليل الجديدة المتجددة على موريتانيا هي رفضه بما يشبه المكابرة أن تكون موريتانيا أو غيرها من الدول ـ الهامشية في رأيه ـ قادرة على تقديم نموذج لأي عمل جيد يصلح للتعميم، وعلى العكس من ذلك يرى المفكر العربي محمد صالح الهرماسي أن «الأحداث الكبرى لا تأتي إلا من الأطراف». والحقيقة أن أستاذنا الكبير هيكل ليس بدعا من المفكرين والإعلاميين العرب في اساءته إلى موريتانيا جهلا أو تجاهلا؟ لا ادري، المهم أنهم غير معذورين لدرايتهم أن الفضيلة توجد بين الرذيلتين، فوسائل الإعلام العربية لا تهتم بموريتانيا إلا إذا كان هناك انقلاب عسكري أو تعلق الأمر بتلك العلاقات المشينة والمرفوضة شعبيا مع الكيان الصهيوني الغاصب والتي ابتلينا بها، وان كانت ليست الأولى ولا الأخيرة من نوعها سرا وعلنا.

وفي بعض الأحيان تساورني شكوك ـ طبعا باطلة ـ أن هناك إرادة وتعمد لتغييب وظلم موريتانيا (ولو من باب نظرية أو عقدة المؤامرة التي ننسب لها نحن العرب آخر صيحاتنا الاخفاقية) فقبل شهرين تحدثت في ندوة مع بعض الزملاء حول هذه النقطة محاولا تنبيههم لما تشهده موريتانيا حاليا من تحول نوعي وجذري غير مسبوق في عالمنا العربي، ويا ليتني لم أتحدث لما لاحظته لدى بعض هؤلاء من «لعنات» تجاه موريتانيا ولن أنسى تلك الإشارة السلبية التي التقطها من القائم على واحد من اكبر مراكز الدراسات في عالمنا العربي، وما جعلني اشعر بالأسى أكثر هو ما همس به احد الأصدقاء في أذني سائلا «طلع عندكم نفط»؟ قلت له مستغربا نعم قال لي (بس لا تشيل هم.. تاريخكم معروف لكن نحن نتقن المزايدات... الكل سيهتم بكم الآن، فالإعلام العربي يهتم أكثر بمن يدفع أكثر) لم ابد لزميلي الودود ارتياحي لهذه الصورة السيئة التي رسم للإعلام العربي الذي انظر له من زوايا أخرى أكثر إشراقا وتقديرا لما ألمسه يوميا لدى الكثير من الشخصيات الإعلامية المرموقة التي تعرفت عليها وكل واحد من هؤلاء يشكل مدرسة إعلامية رائعة، لكن حاولت أن اشرح له وللحاضرين أن مواقفهم السلبية تجاه موريتانيا تسيء إلينا على عدة مستويات ففضلا عن كونها تعكس انطباعا معينا فهي أيضا تنمي التيار (الفرنكفوني) «المستغرب» الذي يكفر بكل ما هو عروبي في موريتانيا، والأخطر من كل ذلك أنها تخدم وبشكل كبير ورهيب أجندة ممثل الكيان «الصهيوني» في «نواكشوط» الذي يستقبلها كهدايا مميزة لما لها من إسهام بالغ في تسهيل مهامه المتمثلة أساسا في الاختراق الشعبي، ويبقى هو المستفيد الأول منها.

صحيح أننا في موريتانيا نتحمل حظ الأسد من غيابنا عن المشهد الإعلامي العربي لعوامل كثيرة لا داعي لحصرها لكن يمكن اختزالها في الوضع السياسي الذي كانت تعيشه البلاد في العقود الأخيرة، الأشبه ما يكون «بالاختطاف» الذي أدت تبعاته إلى شبه قطيعة مع العالم العربي، والأقسى والأبشع من ذلك كونه مهد تلك الظروف السيئة لتفريخ طفيليات التطبيع المشؤوم مع الكيان الصهيوني المغتصب.

أما اليوم فان موريتانيا تعيش لحظة مصالحة مع ذاتها تجسدت في إجماع وطني بدأت ثماره السياسية والاقتصادية تؤتي أكلها، واعتقد جازما أن صدمة الأشقاء ستكون قوية يوم تنقل لهم شاشات الفضائيات آذار (مارس) القادم صورة الرئيس الانتقالي الحالي خارجا من القصر الرئاسي مسلما مفاتيحه للرئيس المدني المنتخب، ذلك الرئيس الذي كل ما نعرفه عنه حتى الآن انه لن يكون من أعضاء المجلس العسكري الحاكم حاليا ولا من أعضاء الحكومة الانتقالية، كما نعلم انه لن يجلس إلى الأبد في انتظار سيدنا عبد الغفار (ملك الموت) لإنهاء مهمته، بل نعلم جيدا انه سيجلس خمس سنوات قابلة للتجديد الانتخابي مرة واحدة.

لحظتها سيتحدث مفكرونا رغما عنهم انطلاقا من معطيات الواقع والتاريخ و«الجغرافيا» عن النموذج الموريتاني وعن تصدير موريتانيا للديمقراطية إلى جانب النفط والثروات الأخرى.

وعندها سيتضح هل كان أشقاؤنا يجهلوننا أم يتجاهلوننا وهل ما نعاني منه «لعنة جغرافيا» أم لعنة جهل وتجاهل؟

في انتظار ذلك وهو ليس ببعيد انقل لأستاذنا الجليل هيكل دعوة الوزير الأول الموريتاني له بالاطلاع على تاريخ موريتانيا بعد أن أبدى احترامه وتقديره، ويمكنني أن أتجاوز على معالي الوزير وافهم من ذلك دعوته لزيارة موريتانيا، وليثق أن الموريتانيين بشتى أطيافهم سيستقبلونه بالورود والتبجيل والإكبار، لأنه هيكل أستاذ الأجيال الذي نعتز ونفخر به، ولأننا أول من يؤمن أن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية وان كان هناك فرق كبير بين الرأي والحقيقة.

وفي الأخير أتقدم لمقام أستاذنا الكبير بخالص الاعتذار إن كنت تجاوزت أو انفعلت فقد كان علي أن اكظم في نفسي غيظ ثلاثة ملايين منسوب لتلك «الجغرافيا»، واكتفي بامتثال الوصفة السحرية «لكاهنة» الحي التي شكوت لها «ظلم ذوي القربى» فناولتني ورقة مطوية وأمرتني بحرقها والبخور بها وذبح ديك احمر، وقراءة ألف من «يا نفط زم» و لكن الورقة كتب فيها بيت المتنبي (ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام)

فعز علي أن احرق شعر المتنبي في بلاد المليون شاعر.

تقديري وتحياتي لأستاذنا الجليل هيكل ولكل الإعلاميين والمفكرين العرب بدون أن أنسى الحارس الهندي.

* رئيس تحرير صحيفة «الصدى» الموريتانية المستقلة

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الر